*- فَصْل :

- أَقْوَالٌ فِى البَلاغَة

١ ـ البَلاغَةُ فِى اصْطِلاحِ عَمْرُو بْنِ عُبَيْد :

قِيلَ لعمرو بن عُبَيْد : مَا البَلاغَة ؟ ؛ قال : ما بلَّغك الجنَّة ؛ وَعَدَلَ بك عن النَّار ؛ وبصَّرك مواقع رُشدك ؛ وعواقب غَيِّك ؛ قال السَّائل : ليس هذا أريد !! قال : من لم يحُسن أن يسكت لم يحُسن أن يستمع ؛ ومن لم يحُسن الاستماع لم يحُسن القول ؛ قال : ليس هذا أريد !! ؛ قال : قال النَّبِىُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ : ﴿إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِياءِ فِينَا بُكء﴾ ـ أى قِلَّة كلام ـ ؛ وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرَّجُل على عقله ؛ قال السائل : ليس هذا أريد !! ؛ قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلامِ ما لا يخافون من فتنة السُّكوتِ وسقطات الصَّمت ؛ قال : ليس هذا أريد !! ؛ قال عمرو : يا هذا ! ؛ فكأنكَ تريد تحبير اللفظ فى حُسْنِ الإفهام ؟ ؛ قال : نعم ؛ قال : إنَّكَ إن أردت تقرير حُجَّة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فى عُقول المُكلَّفين ؛ وتخفيف المؤونة عن المستمعين ؛ وتزيين تلك المعانى فى قُلُوبِ المُريدين ؛ بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ؛ المقبولة فى الأذهان ؛ رغبةً فى سُرعة إجابتهم ؛ ونفى الشواغل عن قُلوبهم ؛ بالموعظة الحسنة على الكتاب والسُّنَّة : كنتَ قد أُوتيت الحكمة وفصل الخطاب ؛

واستوجبت من الله جزيل الثواب .

فقيل لعبد الكريم بن روح الغفارىِّ: من هذا الَّذى صبر له عمرو هذا الصبر ؟! ؛ قال: سألت عن ذلك أبا حفص الشمرى ؛ فقال: ومن يجترىء عليه هذه الجرأة إلاَّ حفص بن سالم .

ـ وعمرو بن عُبَيْد هو رئيس المعتزلة فى وقته ؛ وهو أوَّل من تكلَّم على المخلوق ؛ واعتزل مجلس الحسن البصرى ؛ وهو أول المعتزلة ـ .

ودخل عمرو بن عُبَيْد على أبى جعفر المنصور ؛ فقال: عظنى ؛ فقال: يا أمير المؤمنين ! ؛ إنَّ الله أعطاك الدُّنيا بأسرها ؛ فاشتر نفسك منه ببعضها ؛ يا أمير المؤمنين ! ؛ إنَّ هذا الأمر لو كان باقياً لأحدٍ قبلك ما وصل إليك ؛ ألم تر كيف فعل ربُّك بعاد ؛ إرم ذات العماد ؟!! ؛ قال: فبكى المنصور حتى بلَّ ثوبه ؛ ثم قال: حاجتك يا أبا عثمان ؟ ؛ وكان المنصور لَّما دخل عليه طرح عليه طيلساناً ؛ فقال: يُرفع هذا الطيلسان عنِّى ؛ فرُفع ؛ فقال أبو جعفر: لا تدع إتياننا ؛ قال: نعم ؛ لا يضُمُّنى وإيَّاك بلد إلاَّ دخلت إليك ؛ ولا بدت لى حاجة إلاَّ سألتك ؛ ولكن لا تعطنى حتى أسألك ؛ ولا تَدْعُنى حتى آتيك ؛ قال: إذاً لا تأتينا أبدا !! .

ـ وقد رُوى مثل هذا لابن السَّمَّاك مع الرَّشيد ؛ وقوله: ((لو كان هذا الأمر باقياً لأحدٍ قبلك ما وصل إليك)) كقول ابن الرومى:

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِدَارِ إِقَامَةٍ

إِذَا زَالَ عَن عَيْنِ البَصِيرِ غِطَاؤهَا

وَكَيْفَ بَقَاءُ النَّاسِ فِيهَا وَإِنَّمَا

.. ؛ يَنَالُ بِأَسْبَابِ الفَنَاءِ بَقَاؤهَا

ووعظ شبيبُ بن شبَّة المنصور ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ! ؛ إنَّ الله لم يجعل فوقك أحداً ؛ فلا تجعل فوق شكره شكراً ـ .

ودخل عمرو بن عُبَيْد على المنصور وعنده المهدى ؛ فقال له : هذا ابن أخيك المهدى ولىّ عهد المسلمين ؛ فقال : سميَّتهُ اسماً لم يستحق حمله ؛ ويُفضى إليك الأمر وأنت عنه مشغول ؛ وكان عمرو بن عُبَيْد يقول : اللَّهُمَّ أغننى بالافتقار إليك ؛ ولا تُفقرنى بالاستغناء عنك .

وقال له المنصور : يا أبا عثمان ! ؛ أعنِّى بأصحابك ؟!! ؛ قال : يا أمير المؤمنين ! أظهر الحقَّ يتبعك أهله .

وقال عمر الشمرى : كان عمرو بن عُبَيْد لا يكاد يتكلَّم ؛ وإن تكلَّم لم يكد يُطيل ؛ وكان يقول : لا خير فى المتكلِّم إذا كان كلامه لمن يشهده دون قائله ؛ وإذا طال الكلام عرضت للمتكلِّم أسباب التكلُّف ؛ ولا خير فى شىءٍ يأتيك به التكلُّف .

٢ ـ البَلاغَةُ عِنْدَ أَهْلِ الهِنْد :

قال معمر بن الأشعث : قلت لبهلة الهندىّ أيَّام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ ؛ قال بهلة : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ؛ ولكننى لا أُحسن ترجمتها ؛ ولم أُعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها ولطيف معانيها .

قال ابن الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة؛ فإذا فيها: ((أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة؛ وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش؛ ساكن الجوارح؛ قليل اللَّحظ؛ مُتخيِّر اللفظ؛ لا يكلِّم سيِّد الأُمَّة بكلام الأُمَّة؛ ولا الملوك بكلام السُّوقة؛ ويكون فى قواه فضل التصرُّف فى كل طبقة؛ ولا يُدقِّق المعانى كُلَّ التدقيق؛ ولا يُنقِّح الألفاظ كُلَّ التنقيح؛ ولا يصفِّيها كل التصفية؛ ولا يُهذِّبها غاية التهذيب؛ ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً؛ أو فيلسوفاً عليماً؛ ومن قد تعوَّد حذف فُضول الكلام؛ وإسقاط مُشتركات الألفاظ؛ وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمُبالغة؛ لا على جهة التصفُّح والاعتراض؛ ووجه التظرُّف والاستظراف.)) .

٣ ـ البَلاغَةُ عِنْدَ ابْنِ المُقَفَّع:

قال إسحاق بن حسَّان بن قوهى: لم يُفسِّر أحدٌ البلاغة تفسير عبد الله بن المُقَفَّع؛ إذ قال: البلاغةُ اسمٌ لمعانٍ تجرى فى وجوهٍ كثيرةٍ؛ فمنها ما يكون فى الاستماع؛ ومنها ما يكون فى السُّكوت؛ ومنها ما يكون فى الإشارة؛ ومنها ما يكون فى الحديث؛ ومنها ما يكون فى الاحتجاج؛ ومنها ما يكون شعراً؛

ومنها ما يكون ابتداءً؛ ومنها ما يكون جواباً؛ ومنها ما يكون سجعاً؛ ومنها ما يكون خُطباً؛ ومنها ما يكون رسائل؛ فغاية هذه الأبواب الوحى فيها؛ والإشارة إلى المعنى؛ والإيجاز هو البلاغة؛ فأما الخُطب فيما بين السِّماطين وفى إصلاح ذات

البين ؛ فالإكثار فى غير خَطَلٍ ؛ والإطالة فى غير إملال ؛ ولكن ليكُن فى صدر كلامك دليلٌ على حاجتك ؛ كما أنَّ خير أبيات الشعر

البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته .

ـ كأنه يقول : فَرِّق بين صدر خُطبة النِّكاح ؛ وخُطبة العيد ؛ وخُطبة الصُّلح ؛ وخُطبة التَّواهب ؛ حتى يكون لكُلِّ فَنٍّ من ذلك صدرٌ يدلُّ على عُجُزِه ؛ فإنه لا خير فى كلامٍ لا يدلُّ على معناك ؛ ولا يُشير إلى مغزاك ؛ وإلى العمود الذى

إليه قصدت ؛ والغرض الذى إليه نزعت .

فقيل له : فإن مَلَّ المُستمع الإطالة التى ذكرت أنها أحقُّ بذلك الموضع؟

قال : إذا أعطيت كُلَّ مقامٍ حقَّه ؛ وقُمت بالذى يجب من سياسة الكلام ؛ وأرضيت من يعرف حقوق ذلك ؛ فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ؛ فإنهما لا يرضيان بشىء فأما الجاهل فلست منه وليس منك ؛ ورضا

جميع الناس شىء لا يُنال .

- الإِطَالَةُ وَالإِيجَاز :

وقد مدحوا الإطالة فى مكانها ؛ كما مدحوا الإيجاز فى مكانه .

قال أبو داود فى خُطباء إياد :

يَرْمُونَ بِالخُطَبِ الطُّوَالِ ؛ وَتَارَةً

وَحْىُ المَلاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

قال أبو وجزة السعدىُّ يصف كلام رَجُل :

يَكْفِى قَلِيلُ كَلامِهِ ؛ وَكَثِيرُهُ

ثَبْتٌ ؛ إِذَا طَالَ النِّضَالُ مُصِيبُ

وقال آخر يصف خطيباً :

فَإِذَا تَكَلَّمَ خِلْتَهُ مُتَكَلِّمَاً

بِجَمِيعِ عُدَّةِ أَلْسُنِ الخُطَبَاءِ

فَكَأَنَّ آدَمَ كَانَ عَلَّمَهُ الَّذِى

قَد كَانَ عُلِّمَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ !!

وكان أبو داود يقول : تلخيص المعانى رفق ؛ والاستعانة بالغريب عجز ؛ والتشدق فى الإعراب نقص ؛ والنظر فى عُيون الناس عىٌّ ؛ ومسُّ اللِّحية هُلك ؛ والخروج عمَّا بُنِىَ عليه الكلام إسهاب .

وقال بعضهم يهجو رَجُلاً بالعِى :

مَلِىءٌ بِبُهْرٍ وَالتِفَاتٍ وَسعْلَةٍ

وَمَسْحَةِ عُثْنُونٍ وَفَتْلِ الأَصَابِعِ

ووصف العتابىُّ رَجُلاً بليغاً ؛ فقال : كان يُظهر ما غَمُضَ من الحُجَّة ؛ ويُصوِّر الباطل فى صورة الحق ؛ ويُفهمك الحاجة من غير إعادة ولا استعانة .

قيل له: وما الاستعانة ؟ ؛ قال: يقول عند مقاطع كلامه: يا هناة ! ؛ واسمع ! ؛ وفهمتَ ؟!! ؛ وما أشبه ذلك ؛ وهذا من أمَارات العجز ودلائل الحصر ؛ وإنما ينقطع عليه كلامه فيحاول وصله بهذا ؛ فيكون أشد لانقطاعه .

وكان أبو داود يقول: رأس الخطابة الطَّبع ؛ وعمودها الدُّربة ؛ وجناحاها رواية الكلام ؛ وحليها الإعراب ؛ وبهاؤها تخيُّر اللفظ ؛ والمحبَّة مقرونة بِقِلَّةِ الاستكراه .

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقَّاد المعانى: المعانى القائمة فى صُدور الناس ؛ المُختلجة فى نُفوسهم ؛ والمتصوَّرة فى أذهانهم ؛ المتصلة بخواطرهم ؛ والحادثة عن فكرهم: مستورة خفيَّة ؛ وبعيدة وحشيَّة ؛ ومحجوبة مكنونة ؛ وموجودة فى معنى معدومة ؛ لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ؛ ولا حاجة أخيه وخليطه ؛ ولا معنى شريكه والمعاون له على أمره ؛ وعلى ما لا يُبْلِغُهُ من حاجات نفسه إلاَّ بغيره ؛ وإنما يُحيى تلك المعانى ذكرهم لها ؛ وإخبارهم عنها ؛ واستعمالهم إيَّاها .

وهذه الخصال هى التى تُقرِّبها من الفهم ؛ وتُجلِّيها للعقل ؛ وتجعل الخفىَّ منها ظاهراً ؛ والغائب شاهداً ؛ والبعيد قريباً ؛ وهى التى تُلخِّص المُلْتَبِس ؛ وَتَحُلُّ المُنعقد ؛ وتجعل المُهمل مُقيَّداً ؛ والمُقيَّد مُطلقاً ؛ والمجهول معروفاً ؛ والوحشىَّ مألوفاً ؛ والغُفْلَ موسوماً ؛ والموسوم معلوماً ؛ وعلى قدر وضوح الدلالة ؛ وصواب

الإشارة ؛ وَحُسْنِ الاختصار ؛ ودقّة المدخل : يكون ظهور المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ؛ وكانت الإشارة أبين وأنور : كانت أنفع وأنجع فى البيان . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفىِّ هو البيان الذى سمعت الله يمدحه ويدعو إليه ويحثُّ عليه ؛ بذلك نطق القرآن ؛ وبذلك تفاخرت العرب ؛ وتفاضلت أصناف العجم .

والبيان : اسمٌ لكُلِّ شىءٍ كشف لك عن قناع المعنى ؛ وهتك لك الحُجُب دون الضمير ؛ حتى يُفضى السامع إلى حقيقته ؛ ويهجم على محصوله ؛ كائناً ما كان ذلك البيان ؛ ومن أىِّ جنسٍ كان ذلك الدليل ؛ لأنَّ مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ؛ فبأىِّ شىءٍ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ؛ فذلك هو البيان فى ذلك الموضع .

ثم اعلم ـ حفظك الله ـ أنَّ حُكْمَ المعانى خلاف حُكم الألفاظ ؛ لأنَّ المعانى مبسوطة إلى غير غاية ؛ وأسماء المعانى محصورة معدودة ؛ ومُحصَّلة محدودة .

وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظٍ أو غيره خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللَّفظ ؛ ثُمَّ الإشارة ؛ ثم العقد ؛ ثم الخط ؛ ثم الحال التى تسمى : نصبة ـ والنصبة : هى الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ؛ ولا تقصر عن تلك الدلالات ـ .

ولكُلٍّ واحدةٍ من هذه الدلائل الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها ؛ وحلية مخالفة لحلية أختها ؛ وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجُملة ؛ وعن حقائقها فى التفسير ؛ وعن أجناسها وأقدارها ؛ وعن خاصها وعامِّها ؛ وعن طبقاتها فى السَّار والضَّار ؛ وعمَّا يكون منها لغواً بَهْرَجَاً ؛ وساقطاً مُطَّرِحَاً .

وفى نحو قول أبى عثمان : ((إنَّ المعانى غير مقصورة ولا محصورة)) يقول أبو تمَّام الطائى لأبى دُلف القاسم بن عيسى العجلىِّ :

وَلَو كَانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أَفْنَتْهُ مَا قَرَت

حِيَاضُكَ مِنْهُ فِى العُصُورِ الذَّوَاهِبِ

وَلَكِنَّهُ فَيْضُ العُقُولِ إِذَا انْجَلَت

؛ سَحَائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَت بِسَحَائِبِ

وقال بعض البُلغاء : فى اللسان عشر خصال محمودة : أداة يظهر بها البيان ؛ وشاهد يخُبر عن الضمير ؛ وحاكم يفصل الخطاب ؛ وواعظ ينهى عن القبيح ؛ وناطق يردُّ الجواب ؛ وشافع تُدْرَك به الحاجة ؛ وواصف تُعرف به الأشياء ؛ ومُعْرِب يُشْكَر به الإحسان ؛ ومُعِز تذهب به الأحزان ؛ وحامد يُذهب

الضغينة ؛ ومُونِق يُلهى الأسماع .

وقال أبو العبَّاس بن المعتز : لحظة القلب أسرع خطرة من لحظة العين وأبعد مجالاً ؛ وهى الغائصة فى أعماق أودية الفِكْر ؛ والمتأمِّلة لوجوه العواقب ؛ والجامعة

بين ما غاب وحضر ؛ والميزان الشاهد على ما نفع وضر ؛ والقلب كالمُملى للكلام على اللسان إذا نطق ؛ واليد إذا كتبت ؛ والعاقل يكسو المعانى

وشى الكلام فى قلبه ؛ ثم يُبديها بألفاظٍ كواسٍ فى أحسن زينة ؛ والجاهل يستعجل بإظهار المعانى قبل العناية بتزيين معارضها واستكمال محاسنها .

وقيل لجعفر بن يحيى البرمكى : ما البيان؟ ؛ قال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ؛ ويكشف عن مغزاك ؛ ويخُرجه من الشَّرِكَة ؛ ولا يُستعان عليه بالفكر ؛ ويكون سليماً من التكلُّف ؛ بعيداً من الصَّنعة ؛ بريئاً من التعقيد ؛ غنيَّاً عن التأويل .

وذكر سهل بن هارون ـ وقيل ثُمامة بن أشرس ـ جعفر بن يحيى ؛ فقال : قد جمع فى كلامه وبلاغته الهذَّ والتمهُّل ؛ والجزالة والحلاوة ؛ وكان يُفهم إفهاماً يُغنيه عن الإعادة للكلام ؛ ولو كان يستغنى مُستغنٍ عن الإشارة بمنطقه لاستغنى عنها جعفر ؛ كما استغنى عن الإعادة ؛ فإنه لا يتحبَّسُ ولا يتوقَّف فى منطقه ؛ ولا يتلجلجُ ولا يتسعَّل ؛ ولا يترقَّبُ لفظاً قد استدعاه من

بعد ؛ ولا يتلمَّس معنىً قد عصاه بعد طلبه له .

وقيل لبشَّار بن بُرد : بِمَ فُقْتَ أهل عمرك ؛ وسبقت أهل عصرك : فى حُسْنِ معانى الشِّعر ؛ وتهذيب ألفاظه؟ ؛ فقال : لأنى لم أقبل كُلَّ ما تُورده علىَّ قريحتى ؛ ويُناجينى به طبعى ؛ ويبعثه فكرى ؛ ونظرت إلى مغارس الفِطَن ؛

ومعادن الحقائق ؛ ولطائف التشبيهات : فَسِرْتُ إليها بفهمٍ جيِّدٍ ؛ وغريزةٍ قويَّةٍ ؛ فأحكمت سَبْرَهَا ؛ وانتقيت حُرَّهَا ؛ وكشفت عن حقائقها ؛ واحترزت من مُتَكَلَّفِهَا ؛ ولا واللهِ ما ملك قِيَادِى قط الإعجاب بشىءٍ مما آتى به .

ـ وكان بشَّار بن بُرد : خطيباً ؛ شاعراً ؛ راجزاً ؛ سجَّاعاً ؛ صاحب منثورٍ ومزدوج ـ .

ـ وَصِيَّةُ أَبِى تَمَّام لِلبُحْتُرِىِّ :

قال الوليد بن عُبَيْد البُحْتُرِىُّ : كُنْتُ فى حداثتى أروم الشِّعر ؛ وكنت أرجع فيه إلى طبع ؛ ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ؛ ووجوه اقتضابه ؛ حتى قصدت أبا تمام ؛ وانقطعت فيه إليه ؛ واتَّكلت فى تعريفه عليه ؛ فكان أول ما قال لى : يا أبا عُبَادَة ! ؛ تخيَّر الأوقات : وأنت قليل الهموم ؛ صفرٌ من الغُموم ؛ واعلم أن العادة جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىءٍ أو حفظه فى وقت السَّحَر ؛ وذلك أن النَّفس قد أخذت حظَّها من الرَّاحةِ وقسطها من النوم ؛ وإن أردت التشبيب : فاجعل اللفظ رشيقاً ؛ والمعنى رقيقاً ؛ واكثر فيه من بيان الصَّبابة ؛ وتوجُّع الكآبة ؛ وقلق الأشواق ؛ ولوعة الفراق ؛ فإذا أخذت فى مديح سيِّدٍ ذى أيَادٍ : فأشهر مناقبه ؛ واظهر مناسبه ؛ وأبن معالمه ؛ وشرِّف مقامه ؛ ونضِّد المعانى ؛ واحذر المجهول منها ؛ وإيَّاك أن تَشِينَ شِعْرَكَ بالألفاظ الرديئة ؛ ولتكن كأنك خيَّاط يقطع الثياب على مقادير الأجساد ؛ وإذا عارضك الضجر ؛ فأرح

نفسك ؛ ولا تعمل شعرك إلاَّ وأنت فارغ القلب ؛ واجعل شهوتك لقول الشعر الذَّريعة إلى حُسْنِ نظمه ؛ فإن الشَّهوة نِعْمَ المُعِين ؛ وجُملة الحال : أن تعتبر شِعرك بما سلف من شعر الماضين ؛ فما استحسن العلماء فاقصده ؛ وما تركوه فاجتنبه : ترشد إن شاء الله .

قال : فأعلمت نفسى فيما قال ؛ فوقفت على السِّياسة ـ أى سياسة صناعة فَنِّ الشِّعْر ـ .

وقالوا : البليغ من يحوك الكلام على حسب الأمانى ؛ ويخيط الألفاظ على قُدود المعانى .

ولذكر الطائىِّ الليل ؛ ذكر أبو علىٍّ مُحَمَّد بن الحسن بن المُظفَّر الحاتمىُّ الليلَ ؛ فقال : فيه تجمُّ الأذهان ؛ وتنقطع الأشغال ؛ ويصح النَّظر ؛ وتؤلَّف الحكمة ؛ وتُدِرُّ الخواطر ؛ ويتَّسع مجال القلب ؛ والليل أضوأ فى مذاهب الفكر ؛ وأخفى لعمل البر ؛ وأعون على صدقة السِّر ؛ وأصح لتلاوة الذِّكْر ؛ ومُدبِّروا الأمور يختارون الليل على النهار ؛ فيما لم تَصْفُ فيه الأناة لرياضة التدبير وسياسة التقدير ؛ فى دفع المُلِم ؛ وإمضاء المُهِم ؛ وإنشاء الكُتُب ؛ وتصحيح المعانى ؛ وتقويم المبانى ؛ وإظهار الحُجَج ؛ وإيضاح المنهج ؛ وإصابة نظم الكلام ؛ وتقريبه من الأفهام .

وقال بعض رُؤساء الكُتَّاب: ليس أحد أولى بالأناة وبالرويَّة من كاتب يعرض عقله؛ وينشر بلاغته؛ فينبغى له أن يعمل النُّسخ ويرويها؛ ويقبل عفو القريحة ولا يستكرهها؛ ويعمل على أن جميع الناس أعداء له؛ عارفون بكتابه؛ مُنتقدون عليه؛ مُتفرِّغون إليه.

وقال آخر: إنَّ لابتداء الكلام فتنة تروق؛ وَجِدَّةٌ تُعْجِب؛ فإذا سكنت القريحة؛ وعدل التأمُّل؛ وصفت النَّفس؛ فليُعد النَّظر؛ وليكن فرحه بإحسانه؛ مُساوياً لغمِّهِ بإساءته؛ فقد قالت الخوارج لعبد الله بن وهب الراسبىِّ: نُبايعك الساعةَ؛ فقد رأينا ذلك؛ فقال: دعوا الرأى حتى يبلغ أناته؛ فإنه لا خير فى الرأى الفطير؛ والكلام القضيب.

وقال مُعاوية بن أبى سفيان ـ رَحِمَهُ الله ـ لعبد الله بن جعفر: ما عندك فى كذا وكذا ؟؛ فقال: أُريد أن أُصقل عقلى بنومة القائلة؛ ثم أروح فأقول بعدُ ما عندى.

كان قلم ابن المُقَفَّع يقف كثيراً؛ فقيل له فى ذلك؛ فقال: إن الكلام يزدحم فى صدرى؛ فيقف قلمى ليتخيَّر.

وقالوا: الكِتَاب يُتصفَّح أكثر مما يُتصفَّح الخِطاب؛ لأنَّ الكاتب مُتخيِّر؛ والمُخَاطِب مُضطر؛ ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أأسرعت فيه أم أبطأت؛ وإنما ينظر أأخطأت أم أصبت؛ فإبطاؤك غير قادحٍ فى إصابتك؛ كما إن إسراعك غير مُغَطٍّ على غلطك.

ووصف بعض الكُتَّاب النُّسَخ ؛ فقال : ينبغى أن يصحبها الفكر إلى استقرارها ؛ ثم تُستبرأ بإعادة النظر فيها بعد اختيارها ؛ ويُوسَّع بين سُطورها ؛ ثُمَّ تُحرَّر على ثقةٍ بصحَّتها ؛ وتتأمل بعد التحرير حرفاً حرفاً إلى آخرها .

- أَوْصَافٌ بَلِيغَةٌ فِى البَلاغَات ؛ عَلَى أَلْسِنَةِ أَقْوَامٍ مِن أَهْلِ الصِّنَاعَات :

قال بعض من ولَّدَ عقائل هذا المنثور ؛ وألَّف فواصل هذه الشُّذور : تجمَّع قومٌ من أهل الصناعات ؛ فوصفوا بلاغاتهم ؛ من طريق صناعاتهم :

فقال الجوهرىُّ : أحسن الكلام نظاماً ؛ ما ثقبته يدُ الفكرة ؛ ونظمته الفِطْنَة ؛ ووصل جوهر معانيه فى سموط ألفاظه ؛ فاحتملته نحُور الرُّواة .

وقال العَطَّار : طيب الكلام ؛ ما عُجِنَ عنبر ألفاظه بمسك معانيه ؛ ففاح نسيم نشقه ؛ وسطعت رائحة عبقه ؛ فتعلقت به الرُّواة ؛ وتعطَّرت به السُّرَاة .

وقال الصائغ : خيرُ الكلام ما أحميته بِكَيْرِ الفكر ؛ وسبكته بمشاعل النَّظر ؛ وخلَّصته من خَبَثِ الإطناب ؛ فبرز بروز الإبريز ؛ فى معنىً وجيز .

وقال الصيرفىُّ : خير الكلام ما نقدته يدُ البصيرة ؛ وجلته عين الرويَّة ؛ ووزنته بمعيار الفصاحة ؛ فلا نظرٌ يُزيِّفه ؛ ولا سماع يُبهرجه .

وقال الحَدَّاد: أحسن الكلام ما نُصِبَت عليه منفخة القريحة؛ وأُشعلت عليه نار البصيرة؛ ثُم أخرجته من فحم الإفحام؛ ورقَّقته بفطيس الإفهام.

وقال النَّجَّار: خير الكلام ما أُحكمت نجر معناه بقدوم التقدير؛ ونشرته بمنشار التدبير؛ فصار باباً لبيت البيان؛ وعارضة لسقف اللسان.

وقال النَّجَّاد: أحسن الكلام ما لطُفت رفارف ألفاظه؛ وحسُنت مطارح معانيه؛ فتنزَّهت فى زرابىِّ محاسنه عيون الناظرين؛ وأصاخت لنمارق بهجته آذان السامعين.

وقال الخيَّاط: البلاغة قميص؛ فجربّانه البيان؛ وجيبه المعرفة؛ وكُمَّاه الوجازة؛ ودخاريصه الإفهام؛ ودروزه الحلاوة؛ ولابس جسده اللفظ؛ وروحه المعنى.

وقال الصَّبَّاغ: أحسن الكلام ما لم تنض بهجة إيجازه؛ ولم تُكشف صبغة إعجازه؛ قد صقلته يد الرويَّة من كُمود الإشكال؛ فراع كواعب الآداب؛ وألَّف عذارى الألباب.

وقال الحانك: أحسن الكلام ما اتَّصلت لحُمة ألفاظه بسُدى معانيه؛ فخرج مفوَّفاً مُنيراً؛ وموشَّىً محُبَّراً.

وقال البزَّاز: أحسن الكلام ما صدق رَقْمُ ألفاظه؛ وَحَسُنَ نشر معانيه؛ فلم يستعجم عنك نشر؛ ولم يستبهم عليك طى.

وقال الرَّائِض: خير الكلام ما لم يخرج عن حدِّ التّخليع إلى منزلة التَّقريب إلا بعد الرِّياضة؛ وكان كالمُهر الذى أطمع أوَّل رياضته فى تمام ثقافته .

وقال الجَمَّال: البليغ من أخذ بخطام كلامه؛ فأناخه فى مبرك المعنى؛ ثم جعل الاختصار له عِقَالاً؛ والإيجاز له مجالاً؛ فلم يَنُد عن الآذان؛ ولم يشذ عن الأذهان.

وقال المُخنَّث: خير الكلام ما تكسَّرت أطرافه؛ وتثنَّت أعطافه؛ وكان لفظه حُلَّة؛ ومعناه حِلْيَة .

وقال الخَمَّار: أبلغ الكلام ما طبخته مراجل العلم؛ وصفَّاه راووق الفهم؛ وضمَّته دِنَان الحكمة؛ فتمشَّت فى المفاصل عذوبته؛ وفى الأفكار رقَّته؛ وفى العُقُول حدَّته .

وقال الفقاعى: خير الكلام ما روَّحت ألفاظه غباوة الشَّك؛ ورفعت رقَّته فظاظة الجهل؛ فطاب حساء فطنته؛ وعذب مصُّ جرعه .

وقال الطبيب: خير الكلام ما إذا باشر دواء بيانه سُقم الشُّبهة استطلقت طبيعة الغباوة؛ فشفى من سوء التفهُّم؛ وأورث صحة التوهُّم .

وقال الكَحَّال: كما أن الرَّمَد قَذَى الأبصار؛ فكذا الشُّبهة قذى البصائر؛ فاكحل عين اللُّكنة بميل البلاغة؛ واجْلُ رَمَص الغفلة بمرود اليقظة .

ثُمَّ قال: أجمعوا كُلُّهم على أن أبلغ الكلام: ما إذا أشرقت شمسه؛ انكشف لَبْسُه؛ وإذا صدقت أنواؤه؛ اخضرت أحماؤه .

- فِقَرٌ فِى وَصْفِ البَلاغَة :

قال أعرابىٌّ : البلاغة : التقرُّب من البعيد ؛ والتباعد من الكلفة ؛ والدلالة بقليلٍ على كثير .

قال عبد الحميد بن يحيى : البلاغة : تقرير المعنى فى الأفهام من أقرب وجُوه الكلام.

ابن المعتز : البلاغة : البُلوغ إلى المعنى ولم يطُل سَفَرُ الكلام .

سهل بن هارون : البيان تُرجمان العقول ؛ وروض القُلُوب .

وقال : العقل رائد الرُّوح ؛ والعلم رائد العقل ؛ والبيان تُرجمان العلم .

إبراهيم بن الإمام : يكفى من البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ؛ ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع .

العَتَّابِىُّ : البلاغة : مَدُّ الكلام بمعانيه إذا قصر ؛ وحسن التأليف إذا طال .

أعرابىٌّ : البلاغة : إيجازٌ فى غير عجز ؛ وإطنابٌ فى غير خطل .

وكتب إبراهيم بن المهدى إلى كاتبٍ له - ورآه يتبع وحشىَّ الكلام - : إيَّاك وتتبُّع الوحشىِّ طمعاً فى نيل البلاغة ؛ فإن ذلك العِىُّ الأكبر ؛ وعليك بما سَهُلَ ؛ مع تجنُّبك ألفاظ السِّفَل .

وقال الصُّولىُّ : وصف يحيى بن خالد رَجُلاً ؛ فقال : أخذ بزمام الكلام ؛ فقاده أسهل مقاد ؛ وساقه أجمل مساق ؛ فاسترجع به القُلُوب النَّافرة ؛ واستصرف به الأبصار الطامحة .

وسمع أعرابىٌّ كلام الحسن البصرىِّ ـ رَحِمَهُ الله ـ ؛ فقال : واللهِ إنَّهُ لفصيحٌ إذا نطق ؛ نصيحٌ إذا وعظ .

قال الجاحظ : ينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى الكلام ؛ عذب ينابيع اللسان ؛ إذا حاور سدَّد سهم الصواب إلى غرض المعنى ؛ لا يُكلِّم الخاصة بكلام العامة ؛ ولا العامة بكلام الخاصة .

وقال أبو العبَّاس المُبَرِّد : قال الحسن بن سهل لسالم الحرارى : ما المنزلة التى إذا نزل بها الكاتب كان كاتباً فى قوله وفعله واستحقاقه ؟ ؛ قال : أن يكون مطبوعاً على المعرفة ؛ مُحتنكاً بالتجربة ؛ عارفاً بحلال الكتاب وحرامه ؛ وبالدُّهور فى تصرُّفها وأحكامها ؛ وبالمُلوك فى سِيَرِهَا وأيَّامها ؛ مع تشاكُل اللفظ وقُرب المأخذ ؛ قال الحسن : فليس فى الدنيا إذاً كاتب !!.

وقيل لليونانىِّ : ما البلاغة ؟ ؛ قال : تصحيح الأقسام ؛ واختيار الكلام .

وقيلَ للرُّومىِّ : ما البلاغة ؟ ؛ قال : حُسْنُ الاقتضاب عند البُدَاهَة ؛ والغزارة يوم الإطالة .

وقيل للهندىِّ : ما البلاغة ؟ ؛ قال : وضُوح الدِّلالة ؛ وانتهاز الفُرصة ؛ وَحُسْنُ الإشارة .

وقيل للفارسىِّ : ما البلاغة ؟ ؛ قال : معرفة الفصل من الوصل .

وقال علىٌّ بن عيسى الرَّمَّانىُّ: البلاغة: إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صُورةٍ من اللفظ .

...

- مِن كَلامِ العُلَمَاءِ فِى صِفَةِ البَلاغَةِ وَالبُلَغَاء:

قال على بن عيسى الرَّمَّانىُّ: أبلغ الكلامِ ما حَسُنَ إيجازه ؛ وقلَّ مجازه ؛ وكثُرَ إعجازه ؛ وتناسبت صُدُوره وأعجازه .

أبلغ الكلام ما يُؤْنَسُ مسمعه ؛ وَيُوئَسُ مُضيِّعه .

البليغ من يجتنى من الألفاظ أنوارها ؛ ومن المعانى ثمارها .

ليست البلاغة أن يُطال عنان القلم أو سِنانه ؛ أو يُبسط رِهَانُ القول وميدانه ؛ بل هىَ أن يبلغ أمد المُراد بألفاظٍ أعيان ؛ ومعانٍ أفراد ؛ من حيث لا تزيُّد على الحاجة ؛ ولا إخلال يُفضى إلى الفَاقَة .

البلاغة ميدان: لا يُقطع إلا بسوابق الأذهان ؛ ولا يُسلك إلا ببصائر البيان .

فلان يعبث بالكلام ؛ ويقوده بألين زمام ؛ حتى كأنَّ الألفاظ تتحاسد فى التسابق إلى خواطره ؛ والمعانى تتغاير فى الانثيال على أنامله .

هذا كقول أبى تمام الطائى:

تَغَايَرَ الشِّعْرُ فِيهِ إِذ سَهِرْتُ لَهُ

حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ!!

فلان مشرفيُّ المشرق ؛ وصيرفيُّ المنطق ؛ البيان أصغر صفاته ؛ والبلاغة عفو خطراته ؛ كأنما أُوحيَ بالتوفيق إلى صدره ؛ وَحَسُنَ الصواب بين طبعه وفكره .

فلانٌ يحُزُّ مفاصل الكلام ؛ ويسبق فيها إلى دَرْكِ المرام ؛ كأنما جمع الكلام حوله حتى انتقى منه وانتخب ؛ وتناول منه ما طلب ؛ وترك بعد ذلك أذناباً لا رءوساً ؛ وأجساداً لا نُفوساً .

فلانٌ يرضى بعفو الطَّبع ؛ ويقنع بما خفَّ على السَّمع ؛ ويُوجز فلا يخُل ؛ ويُطنب فلا يُمِل .

للهِ فُلان !! ؛ أخذ بأزمَّة القول يقودها كيف أراد ؛ ويجذبها أنَّى شاء ؛ فلا تعصيه بين الصَّعب والذَّلُول ؛ ولا تُسلمه عند الحزونة والسُّهول ؛ كلامه يشتدُّ مرَّةً حتى تقول الصَّخر الأملس ؛ ويلين تارةً حتى تقول الماء أو أسلس ؛ يقول فيصول ؛ ويجُيب فيُصيب ؛ ويكتب فيطبِّق المفصل ؛ أو يُنسِّق الدُرَّ المُفَصَّل ؛ وَيَرِدُ مشارع الكلام وهى صافية لم تُطرق ؛ وجامّة لم تُرنَّق ؛ خاطره البرق أو أسرع لمعاً ؛ والسَّيف أو أحدُّ قطعاً ؛ والماء أو أسلس جرياً ؛ والفلك أو أقوم هدياً ؛ هو ممن يسهل الكلام على لفظه ؛ وتتزاحم المعانى على طبعه ؛ فيتناول المرمى البعيد بقريب سعيه ؛ ويستنبط المشرع العميق بيسير جريه ؛ لسانه يفلق الصُّخور ؛ ويُغيض البُحُور ؛ ويُسمع الصُّم ؛ ويستنزل العُصْم ؛ خطيب لا تناله حُبْسَة ؛ ولا ترتهنه

لُكْنَة ؛ ولا تتمشَّى فى خطابه رَنَّة ؛ ولا تتحيَّف بيانه عُجْمَة ؛ ولا تعترض لسانه عُقدة .

فلانٌ رقيق الأسلة ؛ عذب العذبة ؛ لو وُضِعَ لسانه على الشَّعْرِ حلقه ؛ أو على الصَّخر فلقه ؛ أو على الجمر أحرقه ؛ أو على الصَّفا خرقه ؛ قد أحسن السَّفارة ؛ واستوفى العبارة ؛ وأدَّى الألفاظ ؛ واستغرق الأغراض ؛ وأصاب شواكل المُراد ؛ وطبَّق مفاصل السَّداد ؛ وبسط لسان الخطاب ؛ وَمَدَّ أطناب الإطناب ؛ وطلب الأمد فى الإسهاب ؛ قال حتى قال الكلام : لو أعفيت !! ؛ وكتب حتى قالت الأقلام : قد أحفيت !! ؛ قد اتَّسع له مشرع الإطناب ؛ وانفرج له مسلك الإسهاب ؛ أرسل لسانه فى ميدانه ؛ وأرخى له من عَنَانِه ؛ قال وأطال ؛ وجال فى بسط الكلام كُلَّ مجال ؛ إذا اسحنفر فى الكلام طفح آذيُّه ؛ وسال أتيُّه ؛ وانثال عليه الكلام كانثيال الغَمَام ؛ واستجاب له الخطاب كصوب الرَّبَاب ؛ ألفاظ : كغمزات الألحاظ ؛ ومعان : كأنها فكٌّ عان ؛ ألفاظٌ كما نوَّرت الأشجار ؛ ومعانٍ كما تنفَّست الأسحار ؛ ألفاظ قد استعارت حلاوة العتاب بين الاحباب ؛ واستلانت كتشكِّى العُشَّاق يوم الفراق ؛ كلامٌ قريبٌ شاسع ؛ ومطمعٌ مانع ؛ كالشمس تقرب ضياء ؛ وتبعد علاء ؛ أو كالماء يرخص موجوداً ؛ ويغلو مفقوداً ؛ كلامٌ لا تَمَجُّهُ الآذان ؛ ولا تُبليه الأزمان ؛ كالبُشرى مسموعة ؛ أو أزاهير الرِّياض مجموعة ؛ ومعان كأنفاس الرِّياح ؛ تعبق بالرَّيحان والرَّاح .

كلامٌ سهلٌ مُتسلسل ؛ كالمُدام بماء الغمام ؛ يقرب إذنه على الأفهام .

كلامٌ كَبَردِ الشَّرابِ على الأكباد الحِرَار ؛ وَبُرْدِ الشباب فى خَلْعِ العِذَار .

كلامٌ كثير العُيُون ؛ سَلِس المُتُون ؛ رقيق الحواشى ؛ سهل النَّواحى .

كلامٌ هو السِّحْرُ الحلال ؛ والماء الزُّلال ؛ والبُرُود والحُبُر ؛ والأمثال والعِبَر ؛ والنَّعيم الحاضر ؛ والشَّباب النَّاضر .

نظرت منه إلى صورة الظُّرف بحتاً ؛ وصُورة البلاغة سبكاً ونحتاً ؛ ألفاظٌ هى خُدَعُ الدَّهر ؛ وَعُقَدُ السِّحْر .

كلامٌ يسرُّ المحزون ؛ ويُسهِّل الحُزُون ؛ ويُعَطِّل الدُّرَّ المخزون .

كلامٌ بعيد من الكُلَف ؛ نقىٌّ من الكَلَف .

كلام كما تنفس السَّحَرُ عن نسيمه ؛ وتبسَّم الدُّرُّ عن نظيمه .

ألفاظٌ تأنَّق الخاطر فى تذهيبها ؛ ومعانٍ عَنِىَ الفهم بتهذيبها .

ألفاظٌ حسبتها من رقَّتها منسوخة فى صحيفة الصَّبَا ؛ وظننتها من سلاستها مكتوبة فى نحر الهوى .

كلامٌ كالبُشرى بالولد الكريم ؛ قُرِعَ به سمع الشيخ العقيم .

كلامٌ قَرُبَ حتَّى أطمع ؛ وَبَعُدَ حتى امتنع ؛ وَقَرُبَ حتى صار قاب قوسين أو أدنى ؛ ثم سما وعلا حتى صار بالمنزل الأعلى .

رقيق المزاج ؛ حلو السماع ؛ نقىُّ السَّبك ؛ مقبول اللَّفظ .

قرأت لفظاً جليًّاً ؛ حوى معنىً خفيًّاً ؛ وكلاماً قريباً ؛ رمى غرضاً بعيداً .

لو أنَّ كلاماً أُذيب به صخر ؛ أو أُطفىء به جمر ؛ أو عُوفى به مريض ؛ أو جُبِرَ به مهيض : لكان كلامه : الذى يقود سامعيه إلى السُّجود ؛ ويجرى فى القُلُوب كجرى الماء فى العُود .

ألفاظه أنوار ؛ ومعانيه ثمار .

كلامه أُنس المقيم الحاضر ؛ وزاد الرَّاحل المسافر .

كلامه يُصغى إليه المقبور ؛ وينتفض له العصفور .

كلام يقضى حقَّ البيان ؛ ويملك رِقَّ الحُسْنِ والإحسان .

كلامٌ منه يجُتنى الدُّر ؛ وبه يُعقد السِّحْر ؛ وعنده يُعْتَبُ الدَّهر ؛ وله ينشرح الصدر .

...

– وَمِن أَلْفَاظِهِم فِى وَصْفِ النَّظْمِ وَالنَّثْر :

نثرٌ كنثر الورُد ؛ ونظمٌ كنظم العقد .

نثر كالسِّحْرِ أو أدق ؛ ونظمٌ كالماء أو أرق .

رسالة كالرَّوضة الأنيقة ؛ وقصيدة كالمخدَّرة الرشيقة .

رسالة تقطر ظُرفاً ؛ وقصيدة تُمزج بماء الرَّاح لُطفاً .

نثره سحر البيان ؛ ونظمه قطع الجُمَان .

نثر كما تفتَّح الزهر ؛ ونظم كما تنفَّس السَّحَر .

نثر ترقُّ نواحيه وحواشيه ؛ ونظمٌ تروق ألفاظه ومعانيه .

نثر كالحديقة تفتَّحت أحداق وردها ؛ ونظمٌ كالخرِّيدة تورَّدت أسرار خدِّها . رسالة تضحك عن غُرَرٍ وزهر ؛ وقصيدة تنطوى على حُبُرٍ ودُرَر .

كلامٌ كما هبَّ نسيم السَّحَر ؛ على صفحات الزَّهَر ؛ وَلَذَّ طعم الكَرَى بعد بَرْحِ السَّهَر .

شعرٌ فى نفسه شاعر ؛ تُوسَمُ به المواسم والمشاعر .

كلامٌ أنسى حلاوة الأولاد بحلاوته ؛ وطلاوة الربيع بطلاوته .

شعرٌ من حُلَّةِ الشَّباب مسروق ؛ ومن طينة الوصال مخلوق .

قصيدةٌ فى فنِّها فريدة ؛ هى عروسٌ كسوتها القوافى ؛ وحليتها المعانى .

شعرٌ يترقرق فيه ماء الطبع ؛ ويرتفع له حجاب القلب والسمع .

شعرٌ لا مزيَّة الإعجاز أخطأته ؛ ولا فضيلة الإيجاز تخطَّته .

شعرٌ رويته لما رأيته ؛ وحفظته لما لحظته .

أبياتٌ لو جُعِلَت خِلَعاً على الزَّمان لتحلَّى بها مُكَاثِراً ؛ وتجلَّى فيها مُفَاخِراً .

شعرٌ راقنى ؛ حتى شاقنى ؛ فإنه مع قُرْبِ لفظه بعيد المرام ؛ ممرِّ النظام ؛ قوىّ الأَسْر ؛ صافى البحر .

نَظْمٌ قد أُلْبِسَ من البداوة فصاحتها ؛ وغشَّى من الحضارة سجاحتها ؛ فإن شئت قُلْتَ : عُبَيْدٌ وَلَبِيد ؛ وإن شئتَ : حبيبٌ والوليد .

قصيدته روضةٌ تجُتنى بالأفكار ؛ ونقلٌ يتناول بالأسماع والأبصار .

نقل العلم والأدب ؛ ألذُّ من نقل المأكل والمشرب .

فاكهة الكلام ؛ أطيب من فاكهة الطعام .

نظمٌ كنظم الجُمَان ؛ وروضٌ كالجِنَان ؛ وأمن الفُؤاد ؛ وطيب الرُّقَاد .

قصيدةٌ لم أر غيرها بِكْرَاً ؛ استوفت أقسام الحِنْكَة ؛ واستكملت أحكام الدُّرْبَة : فعليها رونق الشَّباب ؛ ولها قُوَّة المُذْكيات الصِّلاب .

روح الشِّعر ؛ وتاج الدَّهر ؛ ومقدمة عساكر السِّحْر .

كُلُّ بيت شِعر ؛ خيرٌ من بيت تِبْر .

شعرٌ يُحكَمُ له بالإعجاز والتَّبريز ؛ ويُشبَّه فى صفاء سبكه بالذَّهب الإبريز . شعرٌ تأتلف القُلُوب على دُرَرِهِ ائتلافاً ؛ وتصير الآذان له أصدافاً .

للهِ دَرُّه ! ؛ ما أحلى شِعْرَه ؛ وأنقى دُرَّه ؛ وأعلى قدره ؛ وأعجب أمره !! .

قد أخذ برقاب القوافى ؛ وملك رِقَّ المعانى .

فضله بُرهانُ حَق ؛ وشعره لسان صدق .

فلانٌ يُغْرِبُ بما يجلب ؛ ويُبدع فيما يصنع ؛ حسن السَّبْك ؛ مُحكَم الرَّصْف ؛ بديع الوصف ؛ مرغوبٌ فى شِعْرِه ؛ مُتنافسٌ فى سِحْرِه .

هو ضاربٌ فى قِدَاحِ الشِّعْرِ بأعلى السِّهَام ؛ آخذٌ فى عُيُون الفضل بأوفى الأقسام .

شعاره أشعاره ؛ ودأبه آدابه .

هو ممن يبتده فيبتدع .

طبعه يُملى عليه : ما لا يُملُّ الاستماع إليه .

قريحةٌ غير قريحة ؛ وطبعٌ غير طبع ؛ وخيم غير وخيم ؛ لبيد عنده بليد ؛ وعبيد لديه من العبيد ؛ والفرزدق عنده أقل من فرزدقة خمير ؛ وجرير يُقاد إليه بجرير .

قد نسج حلالاً لا يُبلى جِدَّتها الجديدان ؛ ولا تزداد إلا حُسْنَاً على تردُّدِ الأزمان .

نظمه قد نظم حاشيتى البَرِّ والبحر ؛ وأدرك ناحيتى الشرق والغرب .

أشعار قد وردت المياه ؛ وركبت الأفواه ؛ وسارت فى البلاد ؛ ولم تسر بزاد ؛ وطارت فى الآفاق ؛ ولم تمش على ساق .

شعره أَسْيَرُ من الأمثال ؛ وأسرى من الخيال ؛ سارٍ مسير الرِّياح ؛ وطار بغير جناح .

أشعاره سارت مسير الشمس ؛ وهبَّت هُبُوب الرِّيح ؛ وطبَّقت تخُوم الأرض ؛ وانتظمت الشرق إلى الغرب .

قد كادت الأيَّامُ تُنشدها ؛ والليالى تحفظها ؛ والجِنُّ تدرسها ؛ والطير تتغنَّى بها.

أبياتٌ أسفر عنها طبع المجد ؛ فعلمت كيف يتكسَّر الزَّهر على صفحات الحدائق ؛ وكيف يُغرس الدُّرُّ فى رِياض المهارق .

شعرٌ قد أحسن خدمته بكمال فكره ؛ ووقف كيف شاء عند عالى أمره .

شعرٌ يُعلَّق فى كعبة المجد ؛ ويُتوَّج به مِفْرَق الدَّهر .

جاءت القصيدة ومعها عِزَّةُ المُلك ؛ وعليها رواء الصدق ؛ وفيها سيماء العلم ؛ وعندها لسان المجد ؛ ولها صيال الحق .

لا غَرْو إذا فاض بحر العلم على لسان الشِّعْرِ أن يُنتج ما لا عين وقعت على مثله ؛ ولا أُذُن سمعت بِشِبْهِهِ .

شعرٌ يُكتب فى غُرَّة الدَّهر ؛ ويُشرح فى جبهة الشمس والبدر .

...

– وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِن فُصُولِ أَهْلِ العَصْرِ تَلِيقُ بِهَذَا المَوْضِع :

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى محمد خلاَّد الرَّامَهُرْمُزِىِّ القاضى :

((وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفُنُونِ صِلاتِك وتفقُّدك ؛ وَضُروب بِرِّك وتعهُّدك ؛ فارتحت لكُلِّ ما أوليت ؛ وابتهجت بجميع ما أهديت ؛ وأضفت إحسانك فى كُلِّ فصلٍ إلى نظائره التى وكلت بها ذكرى ؛ ووقفت عليها شُكرى ؛ وتأمَّلت النَّظم فملكنى العُجْبُ به !! ؛ وبهرنى التعجُّب منه !! وقد رُمْتُ أن أجرى على العادة فى تشبيهه بمُستحسنٍ من زَهْرٍ جَنِىّ ؛ وَحُلَلٍ وَحُلِىّ ؛ وشُذُور الفرائد ؛ فى نُحور الخرائد !! .

وَالعَذَارَى غَدَوْنَ فِى الحُلَلِ البِيـ

ضِ وَقَد رُحْنَ فِى الخُطُوطِ السُّودِ

فلم أره لشىءٍ عِدْلا ؛ ولا أرضى ما عددته له مثلاً ؛ واللهُ يزيدك من فضله ؛ ولا يخُليك من إحسانه ؛ ويُلهمك من بِرِّ إخوانك ما تُتمِّم به صنيعك لديهم ؛ ويُرِبّ معه إحسانك إليهم .)) . أهـ .

وكتب أبو القاسم إسماعيل بن عَبَّاد الصاحب إلى أبى سعيد الشبيبىِّ:

((قد رأى شيخ الدولتين كيف الكَلَفُ بسادتى من أهل مِيكَال ـ أَيَّدَهُمُ الله ـ بين وُدٍّ أُضمره على البُعْد ؛ وإيثارٍ أُظهره على تراخى المزار ؛ وتقريظٍ يُمليه علىَّ المَلَوان ؛ ومدحٍ أنطقُ فيه بلسان الزَّمَان ؛ حتَّى إنَّ ذكرهم إذا جرى على لسانى اهتزَّت له نفسى ؛ وفضلهم إذا جرى على سمعى انفرج له صدرى ؛ فتلك عُصْبَةٌ خيرُ فضلها باهر ؛ وشرفها على شرف النَّمَاءِ زاهر ؛ وشجرةٌ طيِّبةٌ أصلها ثابت وفرعها فى السماءِ ناظر ؛ واللهُ يُتمِّمُ أعدادها ؛ ولا يعدمنى ودادها ؛ وإذا كان إكبارى لهم هذا الإكبار : فَكُلُّ مُنتسبٍ إلى جنبهم أثيرٌ لدىَّ ؛ كثيرٌ فى يدىَّ .

وطرأ علىَّ فُلانٌ مُنتسباً إلى جُملتهم ؛ وحبَّذا الجُملة !! ؛ ومُعتزياً إلى خدمتهم ؛ ونعمت الخدمة !! ؛ ففررناه عن طبعٍ سمح ؛ ولفظٍ عذب ؛ وصلةِ نثرٍ بنظم ؛ فإن شاء قال : أنا الوليد ؛ وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ؛ ولم أُعظم بمن خرَّجته تلك النِّعمة ونتجته تلك السُّدَّة أن يأخذ من كُلِّ حَسَنَةٍ بِعُرْوَة ؛ ويقدح فى كُلِّ نَارٍ بِجُذْوَة ؛ وآنسنا بالمُقام مُدَّة ؛ أكَّدتها شوافع عِدَّة ؛ إلى أن تذكَّر معاهد رأى فيها الدَّهرَ طَلْقَاً ؛ والزَّمانَ غُلاماً ؛ والفضلَ رَهْنَاً ؛ والإفضالَ لِزَامَاً ؛ فَحَنَّ حنين الرِّكَاب ؛ وركب عزيم الإياب .)) .

فصلٌ من كتابٍ كتبه الأمير أبو الفضل عُبَيْدِ الله بن أحمد الميكالى إلى أبى القاسم الداوودىِّ جواباً عن كتابٍ له ورد عليه :

((وقفت على ما أتحفنى به الشيخ : من نظمه الرائق البديع ؛ وخطّه المُزْرِى بزهر الرَّبيع ؛ مُوشَّحاً بِغُرَرِ ألفاظه ؛ التى لو أُعِيرَت حليتها لعطَّلت قلائد النُّحور ؛ وأبكار معانيه التى لو قُسِّمت حلاوتها لأعذبت موارد البُحور ؛ فَسَرَّحَتُ طرفى منها فى رياضٍ جادتها سحائبُ العُلُوم والحِكَم ؛ وَهَبَّ عليها نسيم الفضل والكرم ؛ وابتسمت عنها ثُغُور المعالى والهمم ؛ ولم أَدْرِ .

ـ وقد حيَّرتنى أصنافها ؛ وبهرتنى ثُغُورها وأوصافها ؛ حتى كستنى اهتزازاً وإعجاباً ؛ وأنشأت بينى وبين التماسك سِتْرَاً وحجاباً ـ ؛ ولم أَدْرِ أدهتنى لها نشوة راح؟!! ؛ أم ازدهتنى نغمة ارتياح؟!! ؛ وانتظم عندى منها عقد ثناءٍ وقريض ؟!! ؛ أم قرع سمعى منها غناءُ معبد وغريض ؟!! ؛ وكيفما كان ؛ فقد حوى رُتْبَة الإعجاز والإبداع ؛ وأصبح نُزهة القُلُوب والأسماع ؛ فما من جارحةٍ إلاَّ وهى تَودُّ لو كانت أُذُنَاً فتلتقط دُرَرَهُ وجواهره ؛ أو عيناً تجتلى مطالعه ومناظره ؛ أو لساناً يدرس محاسنه ومفاخره !! .)) .

وله فصلٌ من كتابٍ إلى أبى منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبىِّ :

((وصل كتاب مولاى وسيِّدى ؛ أبدعُ الكُتُبِ هوادى وأعجازاً ؛ وأبرعها بلاغةً وإعجازاً ؛ فحسبت ألفاظه دُرَّ السَّحَاب ؛ أو أصفى قطراً وديمة ؛ ومعانيه دُرَّ السَّخاب ؛ بل أوفى قدراً وقيمة .

وتأملت الأبيات ؛ فوجدتها فائقة النَّظْمِ والرَّصف ؛ عبقة النَّسيم والعُرْف ؛ فائزة بِقِدَاحِ الحُسْنِ والظَّرف ؛ مالكة لزمام القلب والطَّرف ؛ ولا غَرْو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر ؛ وهو هدف الفِقَرِ والنَّوادر ؛ وَصُدَفِ الدُّرَرِ والجواهر ؛ واللهُ يُمَتِّعهُ بما منحه من هذه الغُرَرِ والأوضاح ؛ كما أطلق فيه ألسنة الثناء والامتداح .)) .

فصلٌ لأبى الفضل :

((وصل كتاب الشيخ المُبَشِّر من خبر سلامته ؛ التى هىَ غُرَّة الزَّمان البهيم ؛ وَعُذْرُ الدهر المُلِيم ؛ بما أشرقت له آفاق الفضل والكرم ؛ وتمَّت به نفائس الآلاء والنِّعَم ؛ فسرَّحتُ طرفى من محاسن ألفاظه ؛ فى أنوارٍ تَرُوقُ أزاهرها ؛ وقلائد تروع دُرَرُها وجواهرها ؛ وَمُبَارٌ يسترقُّ الرِّقاب باطنها وظاهرها .)) .

وله إلى أبى سعيد بن خلف الهمدانىِّ :

((وصل كتابك مُتَحَمِّلاً من أخبار سلامتك ؛ وآثار نعم الله بساحتك : ما أدَّى رُوحَ البِرِّ ونسيمه ؛ وجمع فُنُون الفضل وتقاسيمه ؛ ومُجُدِّداً عندى من عُمُرِ مواصلته ؛ ومعسول كلامه ومحاورته : ما ترك غُصْنَ المِقَةِ غَضَّاً تروق أوراقه ؛ ووجه الثقة طلقاً يتهلَّلُ إشراقه ؛ فكم جنيت عنه من ثَمَرِ مَسَرَّةٍ كانت عوائق الأيَّام تجُاذبنيه ؛ وحويت به من عِلَقٍ مُضِنَّةٍ قلَّما يجود الدهر بمثله لبنيه .)) .

وله فصلٌ إلى بعض الحُكَّام بجُوَيْن :

((وصل كتاب الحاكم ؛ وقد وَشَّحَهُ بمحاسن فِقَرِه ؛ ونتائج فكره : من لفظٍ شهىٍّ أعطته القُلُوب فضل المَقَادَة ؛ ومعنىً سَنِىٍّ جاده صوب الإصابة والإجادة ؛ وَبِرٍّ هنىٍّ اتَّفقت على الاعتراف بفضله ألسنة الثناء والشهادة ؛ فسرَّحتُ طرفى فيما حواه من بدائع وَطُرَف ؛ قد جمعت فى الحُسْنِ والإحسان بين واسطةٍ وَطَرْف ؛ حتَّى لم تبقَ فى البلاغة يتيمة إلا جبرتها وتمَّمتها .)) .

وله إلى الأمير السَّيِّد أبيه يُهنئه بالقُدُوم :

((كتبتُ وأنا بمنزلةِ من ارتدَّ إليه شبابه بعد المشيب ؛ وارتدى برداءٍ من العُمُرِ قشيب ؛ والحمدُ لله رَبِّ العالمين .

وصل كتاب مولاى مُبَشِّرًا من خبر عَوْدِهِ إلى مَقَرِّ عِزِّه وشرفه ؛ محروساً فى حفظ الله وَكَنَفِهِ : بما لم تزل الآمال تتنسَّم روائحه ؛ وتترقَّب غادى صُنْعِ الله فيه ورائحه ؛ واثقة بأنَّ عادة الله الكريمة عنده تسايره وترافقه ؛ وتلزم جنابه فلا تفارقه ؛ حتى تخرجه من غمرة الغماء خروج السيف من الغمد ؛ والبدر بعد السِّرَار إلى الانجلاء ؛ فعددتُ يوم ورُوده عيداً ؛ أعاد عهد السُّرُورِ جديداً ؛ وَرَدَّ طرف الحَسُودِ كليلاً وقد كان حديداً ؛ ولم أُشبِّهه فى إهداء الرُّوح والشِّفاء ؛ وتلافى الرُّوح بعد أن أشفى على المكروه كل الإشفاء : إلاَّ بقميص يُوسُف حين تلقَّاه يعقوب ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ من البشير ؛ وألقاه على وجهه فنظر بعين البصير ؛ فكم

أوسعته لثماً واستلاماً ؛ والتقطت منه بَرْدَاً وسلاماً ؛ حتى لم تبق غُلَّةٌ فى الصدر إلا برَّدتها ؛ ولا غُمَّةٌ فى النَّفس إلا طردتها ؛ ولا شريعة من الأُنْسِ إلا وردتها .)) .

وله فصلٌ من رسالة :

((وكان فرط التعجُّبِ مَرَّةً ؛ وَعِظَمُ الإعجاب تَارَةً : يقف بى عند أَوَّلِ فصلٍ من فصوله ؛ ويُثبِّطُنى عن استيفاء غُرَرِهِ وَحُجُوله ؛ ويُوهمنى أنَّ المحاسن ما حوته قلائده ؛ ونظمته فرائده ؛ فليس فى قوس إحسان وراءها منزع ؛ ولا لاقتراح جَنَانٍ فوقها مُتَطَلَّع ؛ حتى إذا جاوزتهُ إلى لففه وتزيينه ؛ وَأَجَلْتُ فكرى فى نُكته وعُيُونه : رأيت ما يحُيِّرُ الطَّرف ؛ ويُعجز الوصف ؛ ويعلو على الأول مَحِلاً ومكاناً ؛ ويفوقه حُسْنَاً وإحساناً : فرتعتُ كيف شئت فى رياضه وحدائقه ؛ واقتبستُ نُورَ الحِكَمِ من مطالعه ومشارقه ؛ وسلَّمت لمعانيه وألفاظه فضيلة السَّبق والبراعة ؛ وتلقَّيتها بواجبها من النَّشر والإذاعة ؛ فإنها جمعت إلى حُسْنِ الإيجاز ؛ درجة الإعجاز ؛ وإلى فضيلة الإبداع ؛ جلالة الموقع فى القُلُوب والأسماع .)) .

وله من فصلٍ :

((وصل كتاب الشيخ ؛ فنشر عندى من جَلَلِ إفضاله وإكرامه ؛ ومحاسن خطابه وكلامه : ما لم أُشبِّهه إلا بأنوار النُّجُود ؛ وَحُبْر البُرُود ؛ وقلائد العُقُود .)) .

وذكر أبو منصور الثعالبيُّ الأميرَ أبا الفضل فى كتابٍ ألَّفه ؛ فقال فى بعض فُصُوله :

((من أراد أن يسمع سِرَّ النَّظْم ؛ وَسِحْرَ الشِّعْر ؛ وَرُقْيَة الدَّهر ؛ ويرى صوب العقل ؛ وذوب الظَّرف ؛ ونتيجة الفضل : فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده ؛ وأثمره عالى فكره : من مُلَحٍ تمتزج بالنُّفوس لنفاستها ؛ وتُشرب بالقُلُوبِ لسلاستها !!

قَوَافٍ إِذَا مَا رَوَاهَا المَشُو

قُ هَزَّت لَهَا الغَانِيَاتُ القُدُودَا

كَسَوْنَ عَبِيداً ثِيَابَ العَبِيدِ

وَأَضْحَى لَبِيدٌ لَدَيْهَا بَلِيدَا

وَايْمُ اللهِ ؛ ما مَرَّ يومٌ أسعفنى فيه الزَّمان بمواجهة وجهه ؛ وأسعدنى بالاقتباس من نُورِهِ والاغتراف من بحره ؛ فشاهدت ثمار المجد والسُّؤود تنتثر من شمائله ؛ ورأيت فضائل الدَّهر عِيَالاً على فضائله ؛ وقرأتُ نُسْخَةَ الفضل والكرم من ألحاظه ؛ وانتهبت فضائل الفوائد من ألفاظه : إلاَّ تذكرتُ ما أنشدنيه ـ أَدَامَ اللهُ تَأْييدَهُ ـ لابنِ الرُّومىِّ :

لَوْلا عَجَائِبُ صُنْعِ اللهِ مَا ثَبَتَت

تِلْكَ الفَضَائِلُ فِى لَحمٍ وَلا عَصَبِ

وقولَ الطَّائِيِّ:

فَلَو صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَم تَزِدْهَا

عَلَى مَا فِيكَ مِن كَرَمِ الطِّبَاعِ

وقولَ كُشَاجِم:

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الكَمَالِ إِلَى

عَيْبٍ يُوقِّيهِ مِنَ العَيْنِ

وربَّعتُ بقول أبى الطيِّب:

فَإِن تَفُق الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُم

فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

ثم استعرت فيه بيان أبى إسحاق الصابى؛ حيث يقول للصاحب: ((ورَّثهُ اللهُ أعمارها؛ كما بلَّغه فى البلاغة أنوارها .)) .

وقال فى فصل منه:

((وما أنس لا أنس أيَّامى عنده بفيروزآباد - إحدى قُرَاه برُستاق جُوَيْن؛ سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سيل القطر -؛ فإنها كانت - بطلعته البدريَّة؛ وعشرته العِطريَّة؛ وآدابه العُلويَّة؛ وألفاظه اللُّؤلؤيَّة؛ مع جلائل نعمه المذكورة؛ ودقائق كرمه المشكورة؛ وفوائد مجالسه المعمورة؛ ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون -: أُنموذجات من الجَنَّةِ التى وُعِدَ المتقون؛ وإذا تذكرتها فى

المرابع التى هى مراتع النَّواظر ؛ والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر ؛ والبساتين التى إذا أخذت بدائع زخارفها ؛ ونشرت طرائف مطارفها : طُوِىَ لها الدِّيباج الخُسروانىّ ؛ وَنُفِىَ معها الوشى الصَّنعانىّ : فلم تُشبَّه إلاَّ بِشِيَمِه ؛ وآثار قلمه ؛ وأزهار كَلِمِه : تذكَّرتُ سَحَرَاً

وسيماً ؛ وخيراً عميماً ؛ وارتياحاً مُقيماً ؛ وروحاً وريحاناً ونعيماً .

وكثيراً ما أحكى للإخوان : أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ؛ وتوفَّرت على خدمته ؛ ولازمت فى أكثر أوقاتى عالى مجلسه ؛ وتعطَّرت عند رُكوبه بِغُبَارِ موكبه ؛ فباللهِ يميناً ـ كُنتُ غنيَّاً عنها لو خفت حنثاً فيها ـ : إنى ما أنكرت طَرَفَاً من أخلاقه ؛ ولم أُشاهد إلاَّ مجداً وشرفاً من أحواله .

وما رأيته اغتاب غائباً ؛ أو سَبَّ حاضراً ؛ أو حرم سائلاً ؛ أو خَيَّبَ آملاً ؛ أو أطاع سُلطان الغضب فى الحَضَر ؛ أو تسلَّى بنار الضَّجَر فى السَّفَر ؛ أو بطش بطش المُتجبِّر ؛ ولا وجدت المآثر إلاَّ ما يتعاطاه ؛ والمآثم إلاَّ ما يتخطَّاه .)) .

وقال فى فصل منه يصفه :

((وأما فُنُون الأدب ؛ فهو ابن بجَدَتِهَا ؛ وأخو جُملتها ؛ وأبو عُذرتها ؛ ومالك أزمَّتها ؛ وكأنما يُوحى إليه فى الاستئثار بمحاسنها ؛ والتفرُّد ببدائعها ؛ ولله هو إذا غرس الدُّرَّ فى أرض القراطيس ؛ وطرَّز بالظلام رداء النَّهار ؛ وألقت بحار خواطره جواهر البلاغة على أنامله ؛ فهُناك الحُسْنُ بِرُمَّتِه ؛ والحُسْنُ بكُلِّيَّته .)) .

وذكر عُمر بن على المطوعىُّ فى كتابٍ ألَّفه فى شعر أبى الفضل ومنثوره والشُّعراء ؛ فقال :

((رأيت أهل هذه الصناعة قد تشعَّبُوا على طُرق ؛ وانقسموا على ثلاث فِرَق : فمنهم من اكتسى كلامه شرف الاكتساب دون شرف الانتساب ؛ كالمكتسبين من الشُّعراء بالمدائح ؛ المُترشِّحين بها لأخذ الجوائز والمنائح ؛ وهم الأكثرون من أهل هذه الصناعة .

ومنهم من شرفت بنات فكره عند أهل العُقول ؛ وجلبت لديهم فضائل القبول ؛ لشرف قائلها ؛ لا لكثرة عقائلها ؛ وكرم واشيها ؛ لا لِرقَّة حواشيها ؛ كالعدد الكثير ؛ والجَمِّ الغفير ؛ من الخُلفاء والأُمراء ؛ والجِلَّة والوزراء .

ومنهم من أخذ بحبل الجودة من طرفيه ؛ وجمع رداء الحُسْنِ من حاشيتيه ؛ كامرىء القيس بن حُجر الكندىِّ فى المتقدمين : وهو أمير الشُّعراء غير منازع ؛ وسيِّدهم غير مجاذب ولا مدافع ؛ وعبد الله بن المعتز بالله أمير المؤمنين فى المُولَّدين : وهو أشعر أبناء الخلافة الهاشميَّة ؛ وأبرع أنشاء الدولة العباسيَّة ؛ ومن جَلَّ كلامه فى التشبيه ؛ عن أن يُمثَّل بنظيرٍ أو شبيه ؛ وعلت أشعاره فى الأوصاف ؛ عن أن تتعاطاها ألسنة الوصَّاف ؛ والأمير أبى فراس ابن حمدان : فارس البلاغة ؛ ورجُل الفصاحة ؛ ومن حكمت له شُعراء العصر قاطبة بالسيادة ؛ واعترفت لكلامه

بالإحسان والإجادة ؛ حتى قال أبو القاسم إسماعيل بن عبَّاد الصاحب : بُدِىءَ الشِّعر بِمَلِك ؛ وَخُتم بملك - يعنى : امرأ القيس ؛ وأبا فراس - .

وهذه الطائفة أشهر الثلاثة تقدُّماً ؛ وأثبتها فى مواطن الفخر ومواطىء الشرف قدماً ؛ وأسبق الشعراء فى ميدان البلاغة ؛ وأرجحهم فى ميدان البراعة ؛ فإنَّ الكلام الصادر عن الأعيان والصُّدُور ، ؛ أَقَرُّ للعيون وأشفى للصُّدُور ؛ فشرف القلائد بمن قلَّدها ؛ كما أن شرف العقائل بمن ولَّدها :

وَخَيْرُ الشِّعْرِ أَكْرَمُهُ رِجَالاً

وَشَرُّ الشِّعْرِ مَا قَالَ العَبِيدُ

وإذا اتفق من اجتمعت فيه هذه الشرائط ؛ وانتظمت عنده هاتيك المحاسن : كان خليقاً بأن تُخَلَّد فى صحائف القُلُوب أشعاره ؛ وتدوَّن فى ضمائر النُفُوس آثاره ؛ وتُكتب على الأحداق والعيون أخباره ؛ وجديراً بأن يُختصَّ بسرعة المجال فى المجالس ؛ وخفَّة المدار فى المدارس .)) .

...

- وَصْفُ الكُتُب :

قال الجاحظ :

((الكتابُ وعاءٌ ملىءٌ علماً ؛ وَظَرْفٌ حُشِىَ ظُرْفَاً ؛ وبُستانٌ يُحملُ فى رَدَن ؛ وروضة تُقلَّب فى حَجَر ؛ ينطق عن الموتى ؛ ويُترجم كلام الأحياء .)) .

وقال: ((من صنَّف كتاباً فقد استُهْدِف ؛ فإن أحسن فقد استعطف ؛ وإن أساء فقد استقذف .)) .

وقال: ((لا أعلم جاراً أبَر ؛ ولا خليطاً أنصف ؛ ولا رفيقاً أطوع ؛ ولا مُعلِّماً أخضع ؛ ولا صاحباً أظهر كفاية ؛ وأقلَّ جناية ؛ ولا أقلَّ إملالاً وإبراماً ؛ ولا أقلَّ خِلافاً وإجراماً ؛ ولا أقلَّ غيبة ؛ ولا أبعد من عضيهة ؛ ولا أكثر أُعجوبة وتصرُّفاً ؛ ولا أقل صَلَفاً وتكلُّفاً ؛ ولا أبعد من مراء ؛ ولا أترك لشَغَب ؛ ولا أزهد فى جدال ؛ ولا أكفَّ عن قتال: من كتاب .

ولا أعلم قريناً أحسن مُواتاة ؛ ولا أعجل مكافأة ؛ ولا أحضر معونة ؛ ولا أقلَّ مئونة ؛ ولا شجرةً أطول عُمُرَاً ؛ ولا أجمع أمراً ؛ ولا أطيب ثمرة ؛ ولا أقرب مُجتنى ؛ ولا أسرع إدراكاً فى كل أوان ؛ ولا أوجد فى غير إبَّان: من كتاب .

ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سِنِّه ؛ وقُرب ميلاده ؛ ورخص ثمنه ؛ وإمكان وجوده ؛ يجمع من التدابير الحسنة ؛ والعُلُوم الغريبة ؛ ومن آثار العُقُول الصحيحة ؛ ومحمود الأخبار عن القُرون الماضية ؛ والبلاد المتراخية ؛ والأمثال السائرة ؛ والأمم البائدة: ما يجمع الكتاب .)) .

ودخل الرَّشيد على المأمون وهو ينظر فى كتاب ؛ فقال: ما هذا ؟ ؛ فقال: كتاب يشحذ الفكرة ؛ ويحسن العشرة ؛ فقال: الحمد لله الذى رزقنى من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه .

وقيل لبعض العُلماء: ما بلغ من سُرورك بأدبك وكتبك؟ ؛ فقال: هى إن خلوتُ لذَّتى ؛ وإن اهتممت سُلوتى ؛ وإن قلتُ: إنَّ زهر البُستان ؛ ونُور الجِنَان ؛ يجلوان الأبصار ؛ ويمتعان بحسنهما الألحاظ: فإن بُستان الكتب يجلو العقل ؛ ويشحذ الذِّهن ؛ ويحُيى القلب ؛ ويُقوِّى القريحة ؛ ويُعين الطبيعة ؛ ويبعث نتائج العُقُول ؛ ويستثير دفائن القُلُوب ؛ ويُمتع فى الخلوة ؛ ويؤنس فى الوحشة ؛ ويُضحك بنوادره ؛ وَيُسِرُّ بغرائبه ؛ ويُفيد ولا يستفيد ؛ ويُعطى ولا يأخذ ؛ وتصل لذَّته إلى القلب ؛ من غير سآمة تُدركك ؛ ولا مشقَّة تعرض لك .